الفكر السياسي عند شيشرون: الطريق نحو الكونية.

Cicero's Political thoughts: the way to Cosmopolitanism.

الدكتور: ابرادشة فريد [1]

جامعة محمد بوضياف– المسيلة

farid.bradcha@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2020/02/21 تاريخ القبول: 2020/04/06 تاريخ النشر: 2020/07/10

ملخص:

نتطرق من خلال هذا المقال الى الفكر السياسي عند الفيلسوف والخطيب الروماني ماركوس تيليوس شيشرون الذي قدم الكثير ليس فقط للحضارة الرومانية بل للحضارة الانسانية جمعاء، وفي هذه الورقة البحثية سوف نبحث في مسألة الاضافة التي قدمها هذا الفيلسوف للفكر السياسي العالمي، أين استطاع أن يقدم فكرة العالمية التي لا تزال الدول الكبرى تتغنى بتطبيقها لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية تمهيدا لفكرة البرلمان والحكومة العالميتين، تجسيدا للنظرية الكوسموبوليتية في العلاقات الدولية والحضارة الانسانية، فكان بحق صاحب أفق علمي وانساني واسع.

كلمات مفتاحية: شيشرون، العالمية، الكوسموبوليتية، الانسانية.

Abstract: Through this article, we deal with the political thought of the Roman philosopher and orator Marcus Tullius Cicéron, who provided much to the Roman civilization and even to the entire human civilization, and in this contribution we will examine the question of the great addition what the philosopher Cicéron made it to the international political thought, where he was able to present the idea of universality Which the great powers are still praising for its application, especially the United States of America, in preparation for the idea of the global parliament and government, an embodiment of the cosmopolitan theory of international relations and human civilization, so he was rightfully the one with a broad scientific and human horizon.

Keywords: Cicero, Cosmopolitanism, Cosmopolitanism, Cosmology

---

[1] **الدكتور: ابرادشة فريد: farid.bradcha@univ-msila.dz**

مقدمة:

أولا وقبل كل شيء لابد أن نتفق جميعا بأنّ الفكر عموما سواء كان نابعا من الشرق أو الغرب، إلاّ أنه في النهاية يبقى إرثا إنسانيا عالميا تشترك فيه البشرية جمعاء، ولعل الحضارات العالمية التي عرفتها البشرية منذ ان خلق الله أدم عليه السلام واستعمره في الارض، قد خضعت جميعها الى قاعدة التراكمية الحضارية ولولا تلك التراكمية لم يكن العالم ليصل الى ما هو عليه اليوم، فكل الحضارات استفادت من بعضها فالحضارة الرومانية استفادت من الحضارة اليونانية، بل لقد وصلت الى درجة الاسر، ولذلك يقال أسرت اثينا محتليها الرومان وصبغت فلسفتهم وصقلت طريقة تفكيرهم، كذلك الحضارة الاسلامية استفادت من حضارات الشرق والحضارة الرومانية، لكن في نفس الوقت يرجع الفضل في بروز وقوة الحضارة الغربية اليوم الى ما قدمته لها الحضارة الاسلامية وهذا لا ينكره إلاّ حاقد أو جاحد.

شيشرون في الحقيقة هو مفكر وخطيب وسياسي روماني بارع استطاع أن يكتب الكثير عن الفلسفة والسياسة والقانون، وخاصة فكره السياسي الذي أثار جدلا واسعا بين النقاد والمفكرين، كيف لا وهو من اكتسب صفة الكاتب والسياسي والمحامي العارف بمداخل القانون بكل براعة وحنكة، بالإضافة الى هذا فقد كان كاتبنا اليوم ممارسا للسياسة ومتوغلا في دواليبها، فقد خدم كقنصل للدولة الرومانية وهو من قام بإخماد العديد من المؤامرات على الحكم الجمهوري في روما لأنه كان رافضا للتسلطية التي يصبوا إليها العديد من الأباطرة (حكم امبراطوري) على غرار **يوليوس قيصر** الذين يفضلون الديكتاتورية في الحكم بدلا من الحكم الذي يكون فيه البرلمان أو مجلس الشيوخ هو المتحكم في زمام الأمور، بل لقد كان شجاعا شجاعة الفرسان حينما حارب ضد يوليوس قيصر نفسه ومارك انطوني من بعده، وسجن مرارا لكنه في ظل تلك الأجواء من الفوضى واللاستقرار تمكنت العناصر الحاملة عليه أن تغتاله عام 43 قبل الميلاد.

من دون ان نستغرق في هذا السرد الماتع لابد أن نتطرق الى الاشكالية البحثية التي نريد الخوض فيها في هذه الدراسة والاجابة عنها لفك الطلامس التي مازالت تعتري سياسة وتوجهات هذا الفيلسوف الخطيب الممارس للسياسة، هل كان صادقا في تبنيه لفكر الرواقيين وميثالية المدينة الفاضلة لأفلاطون ؟ أم أنها مجرد شعارات عمل على استعمالها ورفعها بهدف الوصول الى أغراض خفية انتهت باغتياله ودفنت معه قبل أن تتجسد على أرض الواقع؟ كذلك لابد أن نؤكد على الاجابة على تساؤل أخر مهم وهو ماذا قدم شيشرون للفكر الانساني عموما قبل الفكر الروماني؟

للإجابة على هذه الأسئلة العميقة والتساؤلات الوجيهة سوف نتبع خطة تنطلق من المدخل المفاهيمي ووصولا الى المدخل النظري ثم بعده العملي او التجسيد النظري على أرض الواقع

1 . شيرون: حياته مؤلفاته خطاباته. (Scruton, 2007 : p 95)

حينما نتطرق الى الفكر السياسي والفلسفي لأي فيلسوف من فلاسفة العالم لابد أولا وقبل كل شيء يجب أن نتطرق الى سيرته الذاتية والظروف التي نشأ فيها وتأثر بها، والتي عادة ما يتم اختصارها في حياة ونشأة الفيلسوف ثم يتم التعريج بعدها على مؤلفاته وأهم انجازاته وما قدمه لأمته وللبشرية جمعاء، وهو ما سنقوم به في هذا المحور الأول من محوري الدراسة.

1 . 1: سيرة مختصرة عن حياة شيشرون

هو فيلسوف وسياسي وخطيب روماني، اسمه الكامل **ماركوس تيليوس شيشرون** Marcus Tullius Cicéron، ولد سنة 106 قبل الميلاد وتوفي سنة 43 قبل الميلاد، ولكنه مع ذلك ترك تراثا كبيرا بالمقارنة مع عمره القصير 63 سنة. واشتهر شيشرون ببلاغته العالية فامتهن المحاماة وبرع فيها براعة لا نظير لها، كما كان سياسيا محنكا ومن طراز الكبار، وقد عُيّن قنصلا في عام 63 قبل الميلاد، ثم بعدها كحاكم لإحدى ولايات أسيا الصغرى Minor Asia:(تركيا حاليا)، ولذلك فإن كل الذين كتبوا عن حياة شيشرون وصفوه: " **برجل الدولة** " كما قام بتدريس القانون في كل من روما وأثينا ورودس. (الكيالي، د س ن، ص 514).

ومعروف في ذلك العصر أن الفلسفة الرومانية قد تأثرت بالفلسفة الإغريقية، ولكنها كانت أكثر واقعية منها، ولذلك فالفلاسفة الرومان كانوا أكثر احتكاكا بالواقع وحيثياته عكس نظرائهم الإغريق الذين انغمسوا كثيرا في المثاليات والميتافيزيقا والطوباوية. (بوللوى، 2008، ص 122.)

إنّ درجة تأثر شيشرون بالفلسفة والأفكار الإغريقية جعلت الكثير من الفلاسفة يلحظون ذلك لدرجة أنّ الأستاذ مُحَمَّد طه بدوي وغيره قد وصفوا شيشرون بالفيلسوف اللاتيني " **المتأغرق** " يعني المصبوغ بالصبغة الإغريقية. (بدوي و مرسي، 2000، ص 258.) وكما أسلفنا في المقدمة فإنّ الحضارات تأخذ من بعضها البعض وتتأثر ببعضها البعض، ولذلك يمكن أن نقول بأنّ الحضارة ليست ملكا لأحد إنها ملك للبشرية جمعاء، طبعا عكس الثقافة التي تكون عادة ملكا لمعتنقيها وللمؤمنين بها.

2 . 1 : أشهر مؤلفات شيشرون

كما أسلفنا ذكرا فإن الفيلسوف شيشرون رغم قصر حياته، إلاّ أنّه كان غزير الإنتاج وقد تأثر بأفلاطون تأثرا كبيرا لدرجة أنه لم يرضى لمؤلفين من مؤلفاته إلاّ أن يحملا نفس تسمية كتابين من كتابات أفلاطون وهما : " **في الجمهورية** " De La Rrépublique، و **في القوانين** Des Lois وبالتالي فقد قام شيشرون في هذين العملين بإلباس الفكر والفلسفة الرومانية ثوبا يونانيا بامتياز. (بوللوى، 2008، ص 122)

إنّ الفكر الإغريقي بالنسبة للغرب عموما كالكتاب المقدس الذي لا يمكن المرور دون الاستشهاد بنصوصه، ولذلك فقد تأثرت الفلسفة الرومانية بنظيرتها اليونانية تأثرا منقطع النظير، لدرجة أن الرومان لما احتلوا اليونان وعاثوا فيها فسادا أدركوا بعد احتكاكهم بالإغريق وترجمتهم للفلسفة بأنهم قد عثروا على كنز لا يقدر بثمن، ليس مثل ما فعل المغول والتتار حينما دمروا عاصمة الخلافة العباسية بغداد، كما أنّ الحروب الصليبية على الاسلام والمسلمين جعلتهم يسرقون وينهبون الكتب والمجلدات النفيسة التي استفادوا منها أيما استفادة.

لقد كتب شيشرون العديد من الكتب والرسائل لأصدقائه وأعدائه وأخيه كونتيوس Quintus، ومن خلال تلك الرسائل وصلتنا مختلف العادات والتقاليد الرومانية عن السياسة والخطابة والمحاماة، ولكن وللأسف الشديد فإنّ أعظم ما كتب شيشرون(الجمهورية والقوانين) قد ضاعا وفقدا منهما الجزء الكبير وذلك منذ سبعة قرون، وما وصلنا منهما فقد كان نتيجة عدد من الاقتباسات اليسيرة والمبعثرة لرجال كانوا على علم بالنسخة الأصلية كالقديس أوغسطين. (شترواس وكروبسي، 2005، ص 236 . 237) ولولا ذلك لم يكن العالم ليتعرف على فكر الرجل.

أما في كتابه: " **بحث في الواجبات** " فقد تطرق الى موضوع الحاكم والرعية والواجبات الملقاة على عاتق كل منهما، وقد كان شيشرون في هذا المؤلف كذلك متأثرا بالفلسفة اليونانية وبالتحديد فلسفة أفلاطون ومنظوره لمميزات وخصائص الحاكم، الذي يجب أن يحصل على أعظم وأسمى درجة عند الرومان وهي درجة " **أحسن مواطن**" وهو ما يقابله في فكر أفلاطون **الملك الفيلسوف الحكيم**.

كذلك كتاباته عن القانون الطبيعي، والذي ظهر فيه متأثرا تأثرا بالغا بالفلسفة الرواقية، التي اعتبرها أسمى قانون نابع من الإرادة والعناية الإلهية، لكنه رغم هذا الاعتراف، إلاّ أنه لم يكن بهذا المؤلَف موحدا بالله، (الديانة المنتشرة حينها الوثنية وتعدد الالهة polythéisme، لكنه عنى بذلك أن تلك

العناية هي التي تجمع البشر تحت رابطة واحدة، وهي التي تربطهم بآلهتهم، تحت سقف مدينة عالمية كونية. (بوللوى، 2008، ص 123)

طبعا هذه الفكرة العالمية والكونية (الكوسموبوليتية Cosmos) وتعني نزعة عالمية ترمي إلى التحرر من الأحقاد القومية، واعتبار الإنسانية أسرة واحدة وطنها العالم، وأعضاؤها أفراد البشر جميعا، دون أي اعتبار لاختلافاتهم، سواء اللغوية أو الجنسية أو الموطن أو الدين...الخ. (حنفي و جلال، 1999، 290)

وهذه في الحقيقة هي الفكرة الأصيلة التي تدعوا إليها المدرسة الرواقية بكل ما قدمته من فكر. وهي فكرة أُعيد إحيائها في كل مرحلة من مراحل الحضارة الإنسانية، وهي نفس الفكرة التي تريد أمريكا الوصول إليها وتجسيدها اليوم ، إحياء لأمجاد الإمبراطورية الرومانية التي كانت إمبراطورية لا تغيب الشمس عنها، وهو نفس ما أراده ميكيافلي في كتابه الأمير (إعادة أمجاد الامبراطورية الرومانية بعد تفكك إيطاليا الى خمس دويلات متناحرة) مع بشاعة الطريقة التي حددها لتحقيق تلك الغاية .

إذن فالكسموبوليتية (Cosmopolitanism) التي أعيد بعثها مجددا لها جذور راسخة في الحضارة الغربية، حيث لعبت فكرة «كوزموبوليس» أو المدينة العالمية دوراً مركزياً في الفلسفة الرواقية التي تأثر بها شيشرون، وفي المسيحية بعد ذلك على السواء. وقد أعاد أخيراً بعض المنظرين الاجتماعيين والسياسيين إحياء هذا المفهوم وتقديمه كجزء من سياسة اليسار الجديدة وبديلاً من القومية العرقية. كما برزت الدعوة إلى نوع من الكسموبوليتية في العلاقات الدولية نظراً إلى الوعي المتزايد لحقائق تتخطى حدود القومية في مختلف المستويات وضرورات انسانية عالمية كثيرة تفرض ذلك.

ويتطلب هذا المبدأ طبقة من الحكم العالمي تحدد فيها سيادة الدول أولا، وليس شرط حصرها في دولة عالمية بحد ذاتها، كما يظهر جليا في مشروع الأمركة الذي تسعى الو م أ لفرضه على العالم، مع ضرورة توفير المناخ والميكانيزمات المناسبة لتعايش المؤسسات الكسموبوليتية مع الدول، والتي قد تتجاهل سلطتها في نشاطات معينة. ولعل أكثر المؤسسات التي دُرست إمكاناتها لتشارك في تحقيق مشروع كوني مماثل هي الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي. ولا يزال معظم العمل على هذا المشروع غامضاً بطريقة ما، أما عمل مارتا نوسبوم التي وضعت رؤية مفصلة للتعليم الكوني فهو استثناء مميز، وفي دراسة العلاقات الدولية، يُعَد دافيد هلو المفكر الأساسي والمناصر للديمقراطية الكسموبوليتية في العالم. (غريفتش

و أوكالاهان، 208، ص 345) هذه الديمقراطية التي تعني حكم الشعب العالمي نفسه بنفسه، وسيادته على نفسه دون خضوعه لأي قيد.

كما تحدث شيشرون في كتاباته عن التعاليم الرواقية الخالدة التي تقوم على مبدأ المساواة بين الناس في المؤهلات والقدرات العقلية والمعرفية، وأنّ هذا القانون ذو مصدر إلهي صالح لكل الشعوب ولكل الأزمنة، وبالتالي فهو عكس أرسطو الذي كان يرى بأن هناك تفاوتا بين الأشخاص لتميز بعضهم عن الآخر، ويقصد أنّ اليونانيين في مسعى تمييزي بين اليوناني وغير اليوناني. (بوللوى، 2008، ص 223). وللمعلومية فإنّ الديمقراطية الاثينية التي يتغنى بها الغرب اليوم كانت في الحقيقة تقصي الأغلبية من الانتخاب والاختيار والمشاركة السياسية عمومان وكانت تحصر هذا الحق على المواطن الاثيني (أثينا التي تعني أحد الهة اليونان) بينما الفلاحون والعمال البسطاء والنساء فكلهم والمعوقون والاجانب وو..الخ كلهم لا يعتبرون مواطنين بمعنى المواطنة حسب المفهوم الاغريقي اليوناني في تلك المرحلة.

إن المتمعن في هذه الحقيقة التي توصل إليها شيشرون يدرك مدى تأثره بفكرة القانون الطبيعي وحقوق الإنسان، وليس غريبا أن تصدر هذه الأحكام من محامي وخطيب مثل شيشرون، الذي كثيرا ما دافع عن فكرة القانون وعن روح القانون، ولهذا فقد كان يشدد في كتاباته على ضرورة أن يكون القانون هو الرابطة التي تربط جميع أفراد الدولة وتوحدهم على حكم وقانون واحد.

1 . 3: الخطابات الأربعة عشر في الرد على الملك أنطوني مارك

لقد عاش شيشرون وفيا لمبادئ الجمهورية ومدافعا شرسا عن روح القوانين، وقد تأثر تأثرا بالغا للمستوى الذي وصلت إليه روما في عهد يوليوس قيصر من الحروب الأهلية والتوترات، وقد سجن نتيجة هذه الحروب ثم أصدر القيصر عفوا عنه ليعيش في روما، وبوفاة قيصر وصعود مارك أنطوني إلى الحكم اصطدم بشيشرون اصطداما عنيفا من خلال خطاباته التاريخية في مجلس الشيوخ والتي تعتبر من أروع الخطب في التاريخ، أين دافع فيها عن الجمهورية دفاع الأبطال الأشاوس، وعندما عجز الامبراطور **أنطوني** كغيره من الحكام المستبدين عن إسكاته أدرج اسمه ضمن المحكوم عليهم بالإعدام، فمات وفيا لمبادئ الجمهورية في ساحة الشرف عام 43 قبل الميلاد. (الكيالي، د س ن، ص 514).

كتاب الجمهورية: أيضا كان كتابه في الجمهورية بمثابة دستور روما العظمى ومنارتها السياسية التي كانت ضمانا حقيقيا لاستقرار النظام الجمهوري خاصة في الفترة التي قامت فيها الجمهورية 509 . 27 ق م، وهي الفترة التي عاش فيها الفيلسوف شيشرون.

وللتوضيح أكثر سوف نستدل بمقطع من الكتاب يوضح فيه المؤلف هذه النقطة أي دستور الجمهورية الرومانية: " **أجد من الحسن بالفعل أن يكون هناك في المدينة سلطة عليا وملكية يخصص قسم منها للكبار، وتترك فيها أيضا بعض الشؤون لحكم الجمهور وإرادته، ... وإذا لم يكن هناك توازن في المدينة ، وحقوق ووظائف وأعباء ... فإنّ النظام لا يمكن أن ينعم بالاستقرار** ". (**شوفالييه، 1985، ص 133**).

بل وقد ذهب شيشرون الى ابعد من هذا حينما قال عن الدستور الذي يحكم روما والمستمد من القانون الطبيعي: " إنّ هذا القانون يأمر الناس بواجباتهم، فيمنعهم من ارتكاب الجرائم... لا يستغني عن هذا القانون بقانون آخر، ولا يحق لقانون آخر أن يحفَّر هذا القانون كما وأنّ هذا القانون لا يمكن أن يناقض، ولا يحق للشعب ولا لمجلس الشيوخ أن يحررنا من سيطرة هذا القانون... ولا يكون قانونا في أثينا وغير قانوني في روما، أو قانونا اليوم وغير قانون غدا ، إنّ جميع الأمم في جميع العصور يلزمها القانون الأزلي الواحد العادل. ". (السيد، 2009، ص 65). وهذا هو جوهر فكر الفيلسوف شيشرون عن النظرية الكونية.

2 . الفكر السياسي عند ماركوس شيشرون

لعل أكثر ما يميز الفلاسفة والخطباء الرومان أنهم كانوا أكثر واقعية من الفلاسفة اليونان، ولذلك فإنّ المتصفح للتراث الفكري والمعرفي الذي تركه الرومان يجد أنه كان تراثا قانونيا واقعيا أكثر منه فلسفيا ميتافيزيقيا، طبعا هذا لا يعني أنّ الرومان لم يكتبوا عن الفلسفة، ولكنهم كانوا أكثر ميلا للسياسة وممارستها، ولهذا فقد كان أعظم ما كتب شيشرون في السياسة، وفي مقدمتها كتابيه الشهيرين في الجمهورية ثم في القوانين، وبعدها كتاب: **بحث في الواجبات** وقد كانت هذه المؤلفات بحق الشعلة التي أنارت التاريخ الروماني ومجد الإمبراطورية لولا الانقلاب الإمبراطوري على الجمهوريين والجمهورية عموما.

2 . 1 : الدولة عند شيشرون

إذا تحدثنا عن الفكر السياسي عند شيشرون فإنه لابد علينا من التطرق الى أهم رابطة تربط الحاكم بالمحكوم، وهي الدولة.

يقول شيشرون في تمجيد الدولة: " **يجب على الفيلسوف أن يكون على استعداد في أوقات معينة لأن يتخلى عن اهتمامه بالموضوعات الأزلية والإلهية وأن يضع مواهبه الخاصة في خدمة الدولة.** (شترواس، مرجع سابق، ص 240 . 241).

وينطلق شيشرون في مسألة الدولة كذلك من الفكر الرواقي، والتي يعتبرها بمثابة الجامعة التي تجمع الشتات، إذ من دونها لا معنى لحياة الإنسان و لا لكل تفاعلاته الاجتماعية، بل وقد شدد على أنّ العلاقات الاجتماعية لا يمكن أن تنتظم إلاّ في كنف الدولة التي تعني الشيء العام، كما لا يمكن لهذا الشيء العام أن يستمر إلاّ في وجود أفراد يشتركون في تمجيد المصلحة العامة، وبهذا فقد أنتج شيشرون بفكره النيّر فكرة عالمية وأساسية مفادها أنّ القانون فوق الجميع والجميع خاضع للقانون، وأنّ الحاكم مهما علت رتبته ومهما تنامت قوته، فهو في النهاية ممثل للشعب الذي يعتبر صاحب السيادة والسلطة الحقيقي. (بوللوى، مرجع سابق، ص 123).

واعتقد أن أكثر ما كان يضر بحكام روما في تلك المرحلة هو درجة خطورة هذه الأفكار على حكمهم، إذ لم يكن يتصور في تلك المرحلة من التاريخ البشري أن تظهر أفكار مثل الأفكار التي نادى بها شيشرون، وربما يعتبر شيشرون بهذه المواقف من الذين أدركوا معنى المعارضة الحقيقي، قبل أن تتبلور بعد ذلك بقرون، إذ لم يكن يهدف الى الوصول الى السلطة بل كان هدفه الأسمى الحفاظ على تعاليم وأمجاد الإمبراطورية الرومانية التي كانت فخر كل روماني آنذاك، وبالتأكيد فإنها الأفكار التي أفاضت الكأس وعجلت بإعدامه وإنهاء معارضته لنظام أنطوني مارك المستبد.

وقد قال كذلك في محاولة تكييفه للفلسفة اليونانية مع الواقع الروماني: " **إنّ وجود الفضيلة يتوقف تماما على استخدامها، واستخدامها النبيل هو حكومة الدولة، وتحقيق تلك الأشياء التي يرددها الفلاسفة على أسماعنا باستمرار، ويكون ذلك بالفعل، لا بالكلمات** " **(شترواس، مرجع سابق، ص 238).**

ورغم ما قيل حول عدم أصالة أفكار شيشرون وأنها مجرد تبرير لحكم روماني سابق ومناهض لحكام عصره، إلاّ أنّ الحقيقة غير ذلك تماما فقد كان الرجل صاحب فكر عالمي وكوني، ولم يكن من خلال كتاباته يروج أو يبرر لقائد على حساب آخر وإنما كل الذين كتبوا على شيشرون أكدوا على أنه صاحب مبادئ مخططة لتطوير أساس متين وقوي للدولة، وكل مدنها وشفاء لكل أمراض الشعوب. بل وقد أظهر فكره العالمي حين كتب بالحرف الواحد في مؤلفه القوانين ما نصه: " **إننا لا نشرع قوانين من أجل الشعب الروماني بصفة خاصة، وإنما لجميع الأمم الفاضلة والمستقرة** " (شتراوس، مرجع سابق، ص 241).

ما لفت انتباهي وأنا أبحث في هذا الموضوع المتعلق بالدولة عند شيشرون هو مسألتين أساسيتين، أولها: أنّ هذا الرجل قد كان ذو نظرة عملية ثاقبة، إنّه كان يتحدث في المقطع الأول فيما يتعلق بضرورة التخطيط لتطوير مبادئ وأساسات متينة وقوية للدولة، وكل مدنها وشفاء لكل أمراض الشعوب، عن فكرة الحكم المحلي في الوقت المعاصر، هذا الحكم الذي صار مطبقا في العديد من بلدان العالم كأمريكا وألمانيا وبريطانيا ...الخ، هذا النوع من أنواع الحكم الذي صار أكثر من ضرورة لتعزيز قوة الدولة في عصر ما بعد الحداثة. وثانيها: أنه في المقطع الثاني من خطابه الذي أكد فيه على أنّ ما جاء به من تشريعات وقوانين وأفكار ليس في الحقيقة حصرا أو حكرا على الشعب الروماني، بل لجميع الأمم الفاضلة والمستقرة. إذن فالرجل في هذا المقام يتحدث عن الفكر الكوسموبوليتاني الكوني، الذي في الحقيقة سعت الإمبراطورية الرومانية ان تجسده في المرحلة التي عاش فيها شيشرون، ولعل الحروب الأهلية التي اندلعت في تلك المرحلة هي التي جعلت فكره يأخذ هذا المنهج والمنحى.

كما أنه ليس من الغريب أن يكتب شيشرون بهذه الحرارة والتأثر من الأوضاع التي آلت إليها الإمبراطورية الرومانية، فكل من الفلاسفة "**سينكا" و "بوليب" و "ميكيافلي"**، كلهم كتبوا وهم يتحصرون على أمجاد روما، ولعل كتاب الأمير لميكيافلي والطريقة التي كتب بها كتابه لتوحي بدرجة الحصرة والبؤس الذي كان يعيشه جراء تمزق وتشرذم وانقسام الأمة الايطالية التي كانت مقسمة الى مجموعة أجزاء متناحرة (كحالنا اليوم كمسلمين وعرب)، بعدما كانت مثالا حيا للدولة العالمية التي حُق لها أن تسمى بالولايات المتحدة العالمية وعاصمتها روما، ولعل هذا هو نفس النهج الذي تريد أمريكا اليوم الوصول إليه؛ دولة عالمية عاصمتها الولايات المتحدة الأمريكية، وتحت مسمى الولايات المتحدة العالمية، لكن التطبيق شيء اخر يفتح الكثير من علامات الاستفهام.

2 . 2 : الدساتير والحكومات عند شيشرون

لقد سهل أرسطو على غيره من الفلاسفة والكتاب مسألة البحث في الدساتير، حينما قام وبمنهج تحليلي في دراسة تاريخية وسياسية مقارنة لأكثر من 158 دستور في العالم، هذه الدراسة طبعا والتي تعتبر من الدراسات المرجعية لأي متخصص في القوانين الدستورية، والتي من خلالها استطاع شيشرون أن يفهم جيدا الفلسفة اليونانية سواء عند أفلاطون أو أرسطو، ليختار بدوره الدستور الأمثل والأفضل لروما دولة العالم المستقبلي والانسانية الموحدة.

وبعد فحصه وتمحيصه لمختلف الدساتير في العالم، توصل شيشرون الى قاعدة أنّ أفضل دستور للحكم هو ما كان مزيجا بين عدة دساتير(الدستور المختلط)، إنه الدستور الذي يضمن التوازن بين مختلف فئات المجتمع كما يعطي الحق للفئات الدنيا من المجتمع الحق في المشاركة في الحكم وإيصال أصواتها ومطالبها الى السلطات العليا في البلاط الروماني، ولتفادي كل أشكال النزاعات والخلافات يجب الاقتداء بتجربة اسبرطا في نظام الحكم الدستوري الذي كانت تتبعه، بحيث كان هذا النظام يتيح شيئا من الحرية للطبقات السفلى في مقابل سلطة البلاط، وبالتالي تقل الفوضى ويكون التمثيل حقيقيا. (بوللوى، مرجع سابق، ص 124).

2 . 3 : الحكومات عند شيشرون

تأثر شيشرون في مسألة الحكومات كذلك تأثرا كبيرا بكتابات أرسطو، حيث قسّم شيشرون بدوره الحكومات الى ثلاثة أقسام كبيرة وهي الملكية الفردية والارسطوقراطية وأخيرا الديمقراطية، وقد فضل في مسألة الحكومة أن تكون حكومة مختلطة تجمع بين الأنواع الفاضلة الثلاثة السالفة الذكر.

وعلى نفس منوال الدستور المختلط بين فكرة التوازن والتوزيع العادل للسلطات بين الملك أو الإمبراطور ومجلس الشيوخ والجماهير الشعبية، فالحكم الملكي العادل بالإضافة الى الارستقراطية التي يمثلها مجلس الشيوخ والى الديمقراطية التي يمثلها عموم الجماهير هي نفس أنواع الحكومات الثلاثة التي يفضلها أرسطو، ولهذا فقد سلك شيشرون نفس هذا النهج حينما اعتبر الحكومة المختلطة بين الأنواع الثلاثة كأفضل نظام حكم يمكن تطبيقه. (بوللوى، مرجع سابق، ص 124).

وبالتالي فنفس ما ورد في الدستور عند شيشرون هو نفس ما يطبق كنظام حكم يمكن أن تنتهجه الحكومة. ولكن ومن نظرة نقدية متفحصة نتساءل واقعيا حول مصداقية أو إمكانية الجمع بين الأنواع الثلاثة او المزج بينها والحقيقة تقول بأنّ الفرق والبون شاسع فيما بينها جميعا، إذ يبقى لكل نظام من الانظمة الثلاثة ميكانيزمات للتطبيق والممارسة لا تتماشى مع ما لدى الأنظمة الأخرى.

لكن رغم هذا تبقى هذه النظرة نظرة فلسفية للرؤية التي يراها شيشرون في عصره وزمانه والظروف التي كانت تمر بها الامبراطورية الرومانية التي كانت حضارة عظيمة بكل المقاييس لا تزال مظاهرها وأثارها الى اليوم وفي قارات العالم الثلاثة اسيا اوربا وأفريقيا.

الخاتمة :

في ختام هذه الدراسة نقول بأنه رغم تأثر شيشرون الواضح بالفلسفة اليونانية وبالأفكار المثالية لأفلاطون خاصة، إلاّ أنه قدم طرحا إنسانيا لطالما أراد الكثير تطبيقه على أرض الواقع ولكن الممارسة دائما كانت عائقا وحاجزا امام تجسيد تلك الفكرة المثالية عن تخيل المدينة الفاضلة او أي نوع مشابه للمدينة الفاضلة التي صاغها أفلاطون في ذهنه وبقيت مجرد نظريات وأفكار محبوسة في عقول الرجال، رغم سعي الرواقيين الى نشرها وتأطيرها في إطار ما سموه بالقانون الطبيعي ورغبتهم في بناء نظرية الحكومة العالمية، هذه النظرية التي ساندهم فيها شيشرون وبقوة، بل وقد سعى للدفاع عنها وربما قد اغتيل لأجلها.
لقد استطاع هذا الفيلسوف الخطيب السياسي الروماني الفذ الممارس لشؤون الحكم أن يقدم الكثير من الابداع بالنسبة للفكر الانساني عموما، كيف لا؟ وأنّ افكاره الرائعة التي ولدت في عصور ما قبل الميلاد هي نفس الأفكار التي يصارع العديد من العلماء والباحثين والساسة كذلك في عالم اليوم لتطبيقها على أرض الواقع، طبعا لا يهم إن كانت هذه الأفكار قد تم تحريفها واصطدمت بحواجز الثقافة والدين وصدام الحضارات واحتكار الحقيقة وفرض النموذج بالقوة ... الخ، والتي تعتبر جميعها معوقات لا تدع مجالا لنجاح أفكار شيشرون عن العالمية والكونية.

ومنه نقول لقد تم تحريف أفكار الفلاسفة الرواقيين وشيشرون معهم من طرف الأقوياء الذين دائما لا يقبلون إلاّ بنموذج واحد وهو تبعية الأخرين وانخراطهم تحت سلطتهم التي يعتقدون بأنهم على حق طالما انهم أقوياء لكنهم تناسوا أو نسوا بأنّ الحق هو القوة وليس العكس، لأنّ هذا العكس هو منهج الضعفاء الذين لا يملكون حضارة ولا ثقافة ولا فكر، إنهم في الحقيقة لا يريدون حكومة عالمية يكون فيها الناس سواسية متسامحين يحترم الجميع فيها خيارات الجميع (على ان لا تتعارض مع الفطرة طبعا) بل يريدون عالما منسوجا على مقاساتهم البرغماتية التبعية للأقوياء.

يظهر واضحا جليا من خلال تتبع مسار أفكار شيشرون المختلفة لاسيما السياسية منها أن كان رجلا صادقا في نظرته المستقبلية لعالم واحد وانسانية واحدة كذلك، ولولا استماتته في تبني هاته الحقيقة لقبل بالرضوخ لرغبات وأهداف الاباطرة الرومان الذين كانوا لا يؤمنون بالحكم الجمهوري ولا بالأخوة الانسانية كما هو الحال اليوم ، فالتاريخ يعيد نفسه حتى وإن كانت الاثواب والمسميات جديدة. شيشرون حقيقة فيلسوف عالمي بامتياز ، ويكفي انّ افكاره لم تجد من يجسدها على أرض الوقع لأنها أفكار أخلاقية وانسانية، هذا على الرغم من أنه من حيث الديانة لم يكن موحدا بل كان وثنيا Polytheist .

الهوامش :

مراجع بالعربية:

- الكيالي عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج3، (بيروت: الدار العربية للدراسات والنشر).
- السيد عدنان حسين، **تطور الفكر السياسي**، ط2، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2009).
- بدوي مُحَمَّد طه، و ليلى أمين مرسي، **المبادئ الأساسية في العلوم السياسية**، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 2000).
- بوللوى ياسين فوزي، محاضرات في الفكر السياسي، ط1، (الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2008).
- جان جاك شوفالييه، **تاريخ الفكر السياسي من المدينة الى الدولة القومية**، ترجمة مُحَمَّد عرب صاصيلا، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والفكر، 1985).
- حسن حنفي وصادق جلال العظيم، ما العولمة، ط1، (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1999).
- شتراوس ليو وجوزيف كروبسي، **تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوكيديديدس حتى إسبينوزا**، ترجمة: مُحَمَّد سيد أحمد، ج1، (القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة، 2005).
- غريفيتش مارتين و تيري أوكالاهان، **المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية**، ترجمة مركز الخليج، (الإمارات العربية، ط 1، 2008).

مراجع بالاجنبية:

- **Cicero**, Marcus Tullius (106–43 BC) Roman orator and statesman, looked: Roger Scruton, **The Palgrave Macmillan Dictionary of Political Throught**, 3 rd Edition, New York : palgrave Macmillan, 2007.